الهولوكست: على شط العرب وفى خليج الفرس!

أنيس منصور

أكتوبر

شيئان يبعثان على الدهشة فى هذه الحرب بين العراق وإيران : كمية البترول التى أحرقت ، ثم اسم هذا الدين الذى يتحله الطرفان ويتخذانه سببا لهذه الوحشية ! . .

ولذلك فنحن نتعجل نهاية هذه الحرب : أولا لأننا نريدها أن تنتهى فلا تنتشر بين دول إسلامية أخرى ، وثانيا لأننا نريد أن نعرف لماذا اشتعلت وما الذى تحقق لأى من الطرفين . .

ومن الواضح أن الاستعداد النفسى لهذه الحرب قديم . فالكراهية عميقة . والرغبة فى تسوية الحسابات قديمة ، وقد تأجلت منذ ١٤٠ عاما . وحاول الشاه ونجح . وجاء دور الإمام الخومينى ، ليعلن الجهاد على الأقلية السنية التى تحكم الأغلبية الشيعية فى العراق . فإن كان هذا هو السبب فالتاريخ الأوروبى قد عرف مثل هذه الحروب مئات السنين بين الكاثوليك والبروتستانت ولا يزال فى ايرلندا ، وبين الكاثوليك والإصلاحيين فى فرنسا ، وبين المسلمين والمسيحيين فى الحروب الصليبية ، وأخيرا فى لبنان ، وفى الفلبين ، وبين المسلمين واليهود فى الشرق الأوسط .

وإذا كان المقصود بالحروب الصليبية هو الحروب الدينية ، فما تزال الحروب الصليبية ممتدة ، وهى الآن يمكن تسميتها بالحروب الهلالية – أى الحروب بين المسلمين . . ثم هى الحروب بين الصليب والهلال والمنجل والمطرقة . وكل الحروب ، أيا كان المذهب الذى تدعو إليه أو تدافع عنه ، هى حروب دينية – أولها طعم الدين وحماسته ، وضحاياه يسمونهم بالشهداء فى سبيل « الله » ؟ ! . .

وإذا دلت هذه الحرب على شىء جديد ، فإنها تؤكد لنا أن النزاع العربى الإسرائيلى ليس هو « النزاع » إنما هو نزاع – أى واحد من نزاعات عديدة فى مقدمتها النزاع العربى – العربى ، أى بين العرب مسلمين ومسيحيين . . ابتداء من نزاع العراق وسوريا ، أبناء المذهب البعثى الواحد ، إلى النزاع بين الجزائر الجمهورية والمغرب الملكية ، وبين البوليساريو الثورية ، وبين ليبيا الجماهيرية وتونس البورقيبية وبين اليمن واليمن . . الخ . .

فهل معنى ذلك أن العراق كان لابد أن يجد سببا لنزاع مع جار من جيرانه . . فلما لم يستطع الآن أن ينازع سوريا . فقد أجل هذا النزاع . ولذلك بادرت سوريا بالتعاهد مع الاتحاد السوفيتى عشرين عاما . . هل كان الرئيس صدام حسين التكريتى يستعد لمؤتمر عدم الانحياز فى بغداد سنة ١٩٨٢ ، بأن يحقق لنفسه نصرا عظيما على أقوى جيرانه . فإذا نجح أصبح العراق سيد الخليج . وبذلك يكون صدام البديل عن الشاه وخليفة نهرو وصلاح الدين التكريتى ؟ . .

لقد حاول الرئيس صدام حسين أن يستميل قلوب وعقول وجيوب دول أفريقية كثيرة . فأرسل وفودا عديدة إلى أفريقيا وآسيا . . وأنفق فى دول عدم الانحياز وحدها ٨٥٠ مليون دولار . .

هل كان الإمام الخومينى ينتظر هو الآخر هذه اللحظة ليسوى حسابا قديما مع حكومة العراق التى طردته وساهمت فى اغتيال ابنه مصطفى وأسلمته لفرنسا وتجسست عليه لحساب الشاه ؟ . إن حرب إيران مع العراق هى « جهاد

▲ الامام الخميني . . وثار في طهران الفرس

مقدس ، وشهداء هذه الحرب قد وعدهم الإمام بالجنة تجرى من تحتها الدجلة والفرات وشط العرب . . إن هذه الحرب قد أنقذت الإمام الخميني . . فقد تربع الإمام على عرش الطاووس فكان صورة مطابقة للشاهنشاه مع فارق واحد هو انه ارتدى ملابس الحداد . وقد أدت هذه الحرب إلى توحيد الشعب الإيراني في دفاعه عن أرضه وعرضه وراء الإمام الخميني – المهدى المنتظر أو المهدى المنتصر . .

ولابد من أن يقال هنا وبسرعة إن الحرب ماتزال مستمرة . وهذه جملة ليست اعتراضية ، إنما جملة ضرورية . لكي يؤكد الكاتب للقارىء أنه لا يستطيع أن يعرف بالضبط ماذا حدث . فقد يجيء شيء يغير اتجاه الحرب . ولكن الذى يرسم سير القتال يجده مثل موج البحر هادرا رتيبا : موجات تروح ، وموجات تردد، ورذاذ البترول يشتعل وينعقد سحابا في سماء البلدين . .

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى جعل العراق يتأخر وهو البادىء بالقتال – في توجيه الضربة الأولى . وفي حساب العسكريين أن الضربة الأولى هي نصف النصر – أو نصف المعركة . ولا أحد يعرف أيضا أين كانت إيران تخفي استعدادها الكامل بطائرات الفانتوم ذات الضربات المحددة الدقيقة . .

إن العراق قد اعتمد على عقيدة عسكرية ترى أنه لابد من استخدام قوات صغيرة مركزة في الهجوم . وأهم أهداف هذه القوات هو أن تضرب دون أن توجع . ولكن تقوم بتشتيت القوات الإيرانية ، المزقة ، – أو كان من المعتقد أنها كذلك . .

ولقد لجأ العراق إلى هذا الاسلوب لأن معظم قواته موجودة في مواجهة سوريا ، وفي مواجهة الأكراد . ومعنى ذلك أن العراق هو الذى اختار الوقت والمكان وحجم القوات الضاربة أو اساء الاختيار !

❑❑❑

وكل هذا يؤكد لنا أن العراق لم تكن لديه معلومات صحيحة عن أقوى جيرانه . . واعتمادا على هذه المعلومات الخاطئة ، أو الغرور الشديد ، أشعل حربا لم يدرس كيف تكون بدايتها ، ولا يعرف الآن كيف تكون نهايتها . . فنهاية الحرب في يدى الإمام الخميني . وليس على العراق إلا أن يندم على ما فعل . والعراق لا يعرف الندم . فهم في العراق عندما يعاقبون أحدا لا يعطونه وقتا كافيا للندم . ثم إن المهزوم لا يحيلونه إلى المعاش عادة ، إنما يبعثون به إلى الآخرة ! . .

أما الجيش الإيراني فيبدو أن عددا كبيرا من ضباطه الكبار قد أحيلوا إلى المعاش وإلى السجون وإلى المشنقة أو هربوا إلى العراق ليحاربوا بقوات شيعية أشقاءهم الشيعة في إيران .

وقد تأكد أخيرا ما تصورته في الأسبوع الماضي ، من أن الخميني ينفذ خطة كان قد وضعها الشاه لضرب العراق . . وتأكد مرة أخرى ما تصورته في الأسبوع الماضي أيضا من أن ليبيا تدفع ثمن قطع الغيار التي تتلقاها إيران من تركيا أو من باكستان . ولكن معلوماتنا التاريخية البسيطة تقول : إن السلاح شيء والمقاتل شيء آخر . . فقد يتوافر السلاح ولا يتوافر المقاتلون كما هو الحال في ليبيا . . وقد يكون هناك مقاتلون ولا يوجد سلاح أو ذخيرة كما هو الحال في إيران . . أو يوجد السلاح والرجال ولا يكون قتال كما هو الحال في العراق الذى لم تتدرب قواته ولم تستعد لهذه المعركة ! . .

ونحن الآن أمام جيشين متحاربين ليسا على درجة عالية من التدريب أو الكفاءة القتالية . ولذلك يمكن أن نصف حرب العراق وإيران بالحرب « المتخلفة » . . ومهما كانت الأسباب التي أدت إلى هذا التخلف في إيران أو العراق ، فإن القتال الذى نراه يؤكد أننا أمام جيشين لا يجسدان التخطيط أو القتال . وأن هذه الحرب تضعنا أمام جريمة عالمية – جريمة بيع الدول الكبرى للسلاح ، تجارة السلاح الغالية الثمن . وأنه لا توجد أي ضوابط أو روابط لاستخدام هذا السلاح . .

وهذا يضعنا أمام مشكلة أخرى سياسية أو فلسفية وهي أنه لا معنى لكلمات كثيرة في القاموس السياسي مثل : الحياد . . والحرب . . والوفاق . . فهل يمكن أن توصف الدول الكبرى تاجرة السلاح بأنها على الحياد من هذا القتال . . فالسلاح العراقي : سوفيتي فرنسي، والسلاح الإيراني : أمريكي بريطاني . . هل الولايات المتحدة بأسطولها عند مدخل مضيق هرمز ، على الحياد ؟ هل إرسالها لأربع طائرات إنذار مبكر ، من ١٩ طائرة تملكها ، إلى سماء السعودية ، مع أطقم من قواتها وأقوف من رجالها . يعتبر حيادا أو هو حياد مسلح ؟ هل إرسال السوفيت لأسلحة من ليبيا إلى إيران أو تهريب أسلحة إليها من أفغانستان يعتبر حيادا ؟ هل معاهدة السوفيت مع سوريا ضد العراق ومع ليبيا ضد مصر ، حصار سلام ، أو هو حصار حرب ؟ . .

❑❑❑

وإذا كان هذا هو الوفاق بين أمريكا وروسيا ، فما هو الفرق بينه وبين الاتفاق على الحرب أو الاتفاق على عدم تصعيد أحد غيرهما للموقف حتى لا تكون حرب ؟ ثم ما الذى تخاف عليه روسيا وأمريكا في المنطقة ؟ . .

إن الجميع يرتدى عباءة الحياد ، بما في ذلك الدول العربية أيضا التي تزيد العراق سرا – تزيد العراق خوفا منه ، وتؤيده سرا خوفا من إيران . . وعندما

الهولوكست: على شط العرب وفى خليج الفرس!

حاول الملك حسين أن «يهوش» بتأييده للعراق، حذرته الدول الكبرى أن يذهب إلى أطول من ذراعه. وأحس الملك حسين أنه حقق ما أراد. فقد كان حسن النية! ثم منحته الدول العظمى أن يذهب خطوة واحدة بعد ذلك!..

وسوريا أيدت إيران وأنت ها بالاتحاد السوفيتى على حدود العراق!..

حتى القوة التى وعدت أمريكا بأن تضعها فى المنطقة لتكون جاهزة لأية حرب مفاجئة. هذه القوة التى سميت «قوة الانتشار السريع المفاجىء» لن تعمل إلا فى سنة ١٩٨٢!!..

وبريطانيا بعثت بإحدى المدمرات، وسوف تلحق بها قطع من الأسطول المساعدة. وأكدت أن هذه القوة ليست جزءا من الأسطول الأمريكى. إنما فقط جاءت لحماية ناقلات البترول البريطانية عند مضيق هرمز..

أما هذا المضيق فقد بالغت الدول الغربية فى إمكانية سده أو إغلاقه فلا يمر منه ١٤ مليون برميل يوميا – أى ما يعادل ٤٠٪ من احتياجات العالم الغربى كله، وذلك بمعدل ناقلة واحدة كل ٢٤ دقيقة!..

والمضيق ليس ضيقا – فاتساعه يتراوح بين ٣٥ ميلا و٧٠ ميلا. ثم إن المجرى المائى للسفن عرضه خمسة أميال! ولا يمكن تعطيل الملاحة فى هذا المضيق بهذه السهولة التى صوروها للعالم كله.. بل لو ضربت إحدى الناقلات وغرقت فإنها تشبه حية سمم عندما تقف فى حلق أى واحد منا!..

ق ق ق

وقد التزمت الدول الغربية والعربية أيضا موقفا متشابها هو: انظر وانتظر!

.. ونظر العالم للحرب وانتظر أن تنتهى. فقد طالت أكثر مما توقعنا!

ولذلك عدلت الدول كلها عن هذه النظرية إلى نظرية أخرى هى: افعل قليلا ولكن أخيرا!..

ولا توجد دولة واحدة لم تفعل قليلا بالدعوة والصلاة والنصح أو بالتأييد التليفونى كما فعل جلالة الملك خالد، أو التأييد التليفزيونى كما فعل جلالة الملك حسين.. أو بالاستعداد الفعلى لإعطاء أمريكا تسهيلات عسكرية أرضية وجوية وبحرية كما فعلت مصر، أو بانتهازية كما فعلت سوريا التى أتت بالسوفيت على حدود العراق، وحماية الحكومة من الشعب السورى أو لإدخال روسيا مرة أخرى لتكون طرفا فى النزاع مع إسرائيل، وبذلك تعطل حل المشكلة الفلسطينية بعد إتمام الانسحاب من سيناء، وعندما تكون أمريكا جاهزة بقواتها الجديدة فى المنطقة للقيام بأى عمل عسكرى – هذا إذا جاء ريجان إلى البيت الأبيض!..

وإذا كان من الضرورى نفسيا، استعجال نهاية هذه الحرب خوفا من نتائجها الفادحة على الطرفين، فإن هناك نتائج أخرى قد ظهرت بسرعة: موت الألوف من اللاجئين الجياع فى الصومال. فقد انقطعت عنهم المياه التى تنقلها السيارات التى لا تجد الوقود، وليست هذه إلا نتيجة حاطفة – حاطفة لشربة الماء والرغيف من ضحايا الحرب بين الصومال بقواعدها الأمريكية وبين أثيوبيا التى هى قاعدة سوفيتية!..

ثم إن دولا أفريقية وعربية كانت تتلقى دعما من العراق، لن تحصل عليه لا هذا العام ولا الأعوام القادمة!..

أما الدول الغربية التى أقامت المصانع والمشاريع الضخمة – وفى مقدمتها فرنسا – فسوف تستأنف عملها، وسوف تفى بعقودها. وسوف يعود الستة الآلاف خبير فرنسى وألمانى وإيطالى الذين هربوا إلى عمان. وسوف تكسب الدول الغربية من هذه الحرب، بناء ما انهدم من أرصفة شحن البترول ومحطات الضخ والكهرباء والأنابيب والمفاعلات النووية..

ومن نتائج الحرب أن السعودية والكويت قد ضاعفتا ضخ كميات البترول تعويضا للغرب عن الذى فقده باحتراق آبار إيران والعراق. وهذا قرار حكيم من شأنه أن يؤجل التدخل الأمريكى والأوربى فى الشرق الأوسط، وألا ترتفع أسعار السلع فى العالم، ويكون ضحيتها الأولى: العالم الثالث كله!..

ق ق ق

هل نتفلسف مادمنا لانعرف بوضوح ماذا يحدث، أو لأننا نريد أن نعرف:

هل الشعوب مثل البشر أيضا؟: فطعام الغنى يحتاج إلى معدة، ومعدة الفقير تحتاج إلى طعام؟..

إن إيران والعراق غنيان وعندهما الطعام وعندهما المعدة، فما الذى ينقص الاثنين؟ تنقصهما: القوة، السيادة، السيطرة، الزعامة.. ومن أجل الزعامة تجوع القوى وذلك بأن يقضى على معدته، أو يقضى على طعامه!..

وبذلك يعيش الغنى كما لو كان فقيرا.. فهو يجد الطعام ويجد المعدة ولكن يضحى بالاثنين معا من أجل أن يكون أطول قامة وأطول ذراعا..

كأنه مكتوب على الشعوب الغنية أن تعيش فى معدل واحد.. يكون لديها المال وتبدده، وتحرم شعبها منه.. وعندما تحلم بالمستقبل تنسى أن يكون لها حاضر..

والفراعنة أقاموا الأهرامات، وبددوا طاقات الشعب وأمواله على بنائها.. والأهرامات الحديثة هى سفن الفضاء التى يطلقها الأمريكان والروس فتبتعد عن الأرض وتحرق معها ألوف الملايين من الدولارات، ولكن الناس بأحلامهم وطموحهم وحبهم للسيادة، ينسون ماتكلفه هذه اللعب العلمية المتطورة.. ويحلم الأمريكان والروس بتصعيد خلافاتهم الأبدية إلى الكواكب الأخرى.. وينسون أن ينفقوا ملايين ملايينهم على أنفسهم أو على الشعوب الفقيرة فى العالم كله..

ثم نموذج صغير جدا: ليبيا.. من أغنى دول العالم. ولو وزعت عائداتها من البترول على شعبها، لامتلك كل واحد عمارة ارتفاعها ثلاثون طابقا.. وأقام هو فى الطابق الأخير على مسافة أمتار من طائرته الهليكوبتر وحمام سباحة وحديقة معلقة!..

ولكن نحن نعرف أين تذهب أموال ليبيا؟. ومهما كان السبب الذى يقال لأصحاب المصالح الحقيقية فى ليبيا، فالنتيجة هى أن الأموال تخرج من ليبيا ولاتعود.. وسوف تزداد ليبيا وايران والعراق وأمريكا وروسيا وغيرها ثراء وفى نفس الوقت سوف تتسرب هذه الأموال إلى كل أرض أو كل كوكب.

كأنه مكتوب على الشعوب الغنية أن تعيش دون المستوى الذى تقدر عليه..

وماتزال المعارك مستمرة، حتى كتابة هذه السطور فى حرب ليس فيها نصر أو هزيمة.. فهى حرب: «لانصر ولاهزيمة»!

وإذا كنا نروى النكتة التى تقول، إن أسدين ظل ينهش الواحد منهما الآخر حتى لم يبق إلا ذيلاهما، على أنها شئ لامعقول، وهى لذلك تبعثنا على الضحك فإن مايحدث فى إيران والعراق هو شئ من ذلك. أو إن هذا بالضبط ما يتمناه كل الواقفين على الحياد – أو الواجفين من الحياد من الدول الغربية ودول الخليج..

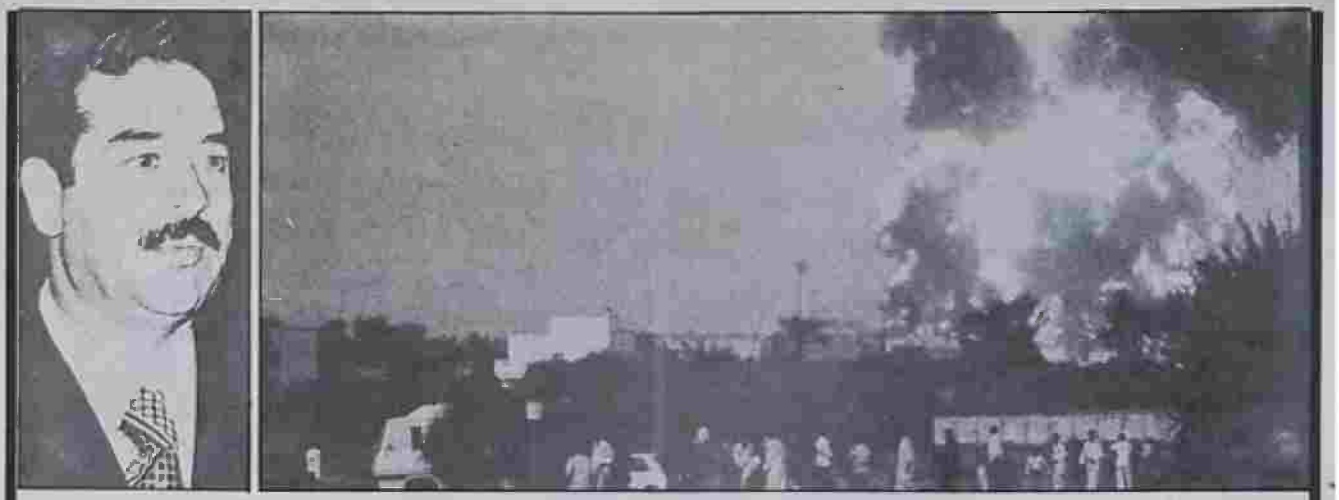

صدام حسين .. ونار على شط العرب ▲

ولكن حتى هذا لن يتحقق قبل أن يبدد كثير من الذهب على اختلاف ألوانه . .

الذهب الأسود : البترول .

والذهب الأحمر : الدم . .

والذهب الأخضر: الدولار . .

كل ذلك سوف يدفن تحت شط العرب وخليج الفرس ! . .

ج ج ج

وسوف تمضي إذاعة بغداد وإذاعة طهران فى ترديد نشيد مصر يوم العدوان الثلاثى : الله أكبر . . الله أكبر فوق كيد المعتدى . .

والله للمظلوم خير مؤيد . .

فكأن هذه المذابح قد تمت باسم الله – كذبوا ! . .

بل إنهم يحرفون كلام الله . .

فالله عندما قال لنا :

« فصل لربك وانحر » قد قصد بذلك أن نصلى عيد الأضحى وبعد ذلك نذبح الخراف . . ولكنهم فى إيران والعراق منعوا شعوبهم من أداء فريضة الحج ، ومنعوا الاحتفال بالعيد . . ولذلك فبدلا من الصلاة وذبح الضحية ، فإنهم يصلون ويذبحون أنفسهم – بئسما فعلوا باسم الدين . وتجنيا عليه ! .

ج ج ج

وفى الأساطير العراقية القديمة كان ذلك البطل فلقامش ، الذى ارتفع من الأرض إلى السماء فى سفينة فضاء أسطورية . . ورأى الدجلة والفرات ورأى الشريط الزراعى الأخضر . . ولو عاد فلقامش اليوم وارتفع عن الأرض ، إن استطاع ، فماذا يجد ؟ . .

يجد النار تأكل النار التى تأكل البشر ، فلا تفرق بين شيعى إيرانى وشيعى عراقى . . وبين سنى عربى وسنى كردى . .

ولا نجد كلمة تسعفنا فى وصف هذا الذى يحدث فى البلدين إلا كلمة « هولوكست » – وهى كلمة نستعيرها من التاريخ اليهودى . و « هولو – كوست » كلمتان يونانيتان معناهما : الحريق الشامل . . أو النار للجميع . . أو الجميع فى النار . .

وقد أطلقها اليهود على النازيين الذين أحرقوهم هم وغيرهم من معارضى هتلر فى غرف الغاز ، فهم مسيحيون أحرقوا اليهود ، ولكن الهولوكست الجديد هو إحراق المسلمين للمسلمين فى مستودعات الغاز باسم الله الرحمن الرحيم ! . .

لقد كان دستوفيسكى الأديب الروسى العظيم يقول : إذا لم يكن هناك إله ، فكل شئ جائز ! . .

ولو عاش الأديب الروسى لتغيرت عبارته ليقول : بل إذا كان هناك إله أيضا ! . .

ج ج ج

وقد افتضح أمر العالم كله أمام هذه الحرب . .

فلا أحد يريدها أن تنتهى ، فأية نهاية لواحد من الطرفين ، أولهما معا ، لن تكون درسا موجعا ، ورادعا قويا فى المستقبل . ولذلك فالعالم كله يتفرج : يظهر الأسف ويخفى الشماتة . . وكل طرف يقول : إن الطرف الآخر هو السبب . .

وليس شيئا مريحا أن نقول : بل هما معا . فهذا عدل كاذب ! . .

ج ج ج

أذكر أن الزعيم التركى دنكتاش قد دعانى إلى الغداء فى الجانب التركى من قبرص . . وفى المطعم الذى أحلى تماما وجدت ذبابة . فقلت : أين النظافة التركية المشهورة . . فأجاب بسرعة : إنها جاءت من القطاع اليونانى من الجزيرة !

وضحكنا . ولما نقلت هذه النكتة إلى القبارصة اليونانيين قالوا : صحيح انها ذبابة يونانية هربت من النظافة واتجهت إلى القذارة عندهم ! . .

وضحكنا . وبقيت الذبابة نكتة حية . فلم يحاول أحد أن يقتلها ! . .

وكذلك النهمة التى تقول : إن إيران هى السبب ، أو العراق هى السبب، ظلت طائرة تروح وتجئ ، دون أن يحاول أحد أن يوقفها أو يقضى عليها . والعالم كله يضع عينا على البترول وعينا على القرآن . . وهو يخشى إن تدخل ليحمى الآبار ، اصطدم بالمسلمين فى كل مكان .

ولذلك يجب أن ينهش الأسدان كل منهما الآخر ، حتى يتبقى ذيل كل منهما أى حتى يصبح المستحيل ممكنا .

ولاتزال المعارك مستمرة . . الله أكبر . . الله أكبر ! فوق كيد المعتدين . . . وبعض الخايدين ! . . □